الحبيب ثامر والمسألة القومية من خلال وثيقتين حول المرأة (١٩٣٠) وتعليم اللغة العربية (١٩٣٢)

Habib Thamer and the National Question through Two Documents on Women (1930) and Teaching the Arabic Language (1932)

د. مراد المولاهي
دكتور باحث في التاريخ المعاصر
مخبر التراث جامعة منوبة– تونس

Dr. Mourad Moulahi
Research Doctor in contemporary history
Heritage Laboratory- Manouba University- Tunisia
mourad.moulahi@hotmail.com

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
٢٠٢٢/٩/١١	٢٠٢٢/١٠/٤

الكلمات المفتاحية: ثامر، بورقيبة، القومية، العربية، المرأة، اللغة

Keyword: Thamer, Bourguiba, nationalism, Arabic, women, language

الملخص

يطمح مقالنا إلى تبْيان رسوخ إيديولوجية القومية العربية في فكر و نضال الدكتور الحبيب ثامر منذ مطلع الثلاثينات من القرن الماضي أي إثر انضوائه إلى جمعية " الوحدة العربية" بباريس قبل شهر أفريل ١٩٣٢ و لذي نتلمّس حضوره من خلال مقاربته الأبوية لمسألة النهوض بالمرأة التونسية و دورها في " تربية أبناء الشعب حتى يصيروا لوطنهم صالحين يشعرون بواجبهم الاجتماعي وتلك خطة ذات شأن عظيم وهي أسّ لقوام المجتمع وحفظ كيانه " القومي (سنة ١٩٣٠) من جهة و في وجوب تعليمها بلغتها القومية أي باللغة العربية التي هي في أوكد الحاجة إلى " معلمين أكفاء ... يعلمون البنت لغة أجدادنا الكرام حتى تنْشأ صالحة معتزّة بقوميتها وتبثّ ذلك في ذهن ولدها حتى يكون وطنيا غيورا" (١٩٣٢) من جهة ثانية. و هي المقاربة التي ستجعل الدكتور الحبيب ثامر إثر تأسيسه صحبة رفيقه الهادي نويرة الشعبة الطالبية الدستورية بباريس سنة ١٩٣٦ ، يختلف مع الزعيم الحبيب بورقيبة في نسج علاقات وثيقة بالقومية الألمانية عن طريق الأمير شكيب أرسلان و يساند قوى المحور ضد الحلفاء و يشهّر بالطلبة التونسيين الذين يتزوّجون بالغربيات و يختار المقاومة المسلحة في إطار مغاربي يجمع الحركات الوطنية الثلاث التونسية و الجزائرية و المغربية تحت إشراف الأمير عبد الكريم الخطابي بطل الريف اللاجئ بمصر منذ سنة ١٩٤٧ و يؤسس لسياسة عدم الانحياز عكس خيار الزعيم بورقيبة للغرب في إطار الحرب الباردة بين القوتين العظمتين الأمريكية الليبيرالية و السوفياتية الشيوعية.

Abstract

Our study aspires to detect the presence of the Arab nationalist ideology in the thought and the anticolonialist fight of Dr. Habib Thameur since his adhesion at the beginning of the thirties of the last century to the association of the Arab Union constituted by Iraqi student and diplomatic personalities residing in Paris long before April 1932. This is the capture of this thought through two documents, one dating from 1930 and the other from 1932 dealing with how the emancipation of Tunisian women in a paternalistic nationalist option by limiting its field of action in the education of children and their preparation to serve the nation and the need to provide them with this education in their national Arabic language by recruiting competent teachers for the task. This explains, following the founding of the Destourian student cell in Paris in 1936, the appearance of strategic and tactical differences in the positioning of the two leaders vis-à-vis the emancipation of Tunisian women for one circumscribed and oriented and for the other free and total (code of personal status promulgated on August 13, 1956), alliances during the War between Allies and Axis forces and finally the premises of the Afro-Asian non-alignment of Thameur against the Western alignment of the leader Bourguiba during the Cold War at the end of the Second World War.

في سياق انهيار الإمبراطورية العثمانية و هزيمتها ضمن قوى المركز ضد الحلفاء (نوفمبر ١٩١٨)، شهدت اللوائية الإسلامية أو ما يسمى بسياسة الجامعة الإسلامية la politique panislamiste التي انتهجها ثالوث جمعية " الاتحاد و الترقي " في الحكم ، أنور باشا و طلعت باشا و جمال باشا، المسيّر لدواليب الدولة العثمانية طوال الحرب، اهتزازا تدريجيا ملحوظا عصف بالخلافة الإسلامية (مارس ١٩٢٤) و فسح المجال للأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩-١٩٤٦) و إحسان الجابري (١٨٧٩-١٩٨٠) الوطنيين اللبناني والسوري للدعوة و التنظير لإيديولوجية القومية العربية، و تأسيس مجلتي " الأمة العربية" La Nation Arabe و " الشعب العربي" Le Peuple Arabe للدفاع عن حقوق العرب والحركة الوطنية السورية، باللغة الفرنسية في جنيف سنة ١٩٣٠[١]. و طرحت مسألة نهضة الأمم و الشعوب العربية و تشكل مفهوم الأمة و الهوية القومية و رصد الحلقات الواصلة بين الوطنية بالمعنى الضيق و الأخوة الإسلامية للبلورة و التحليل و التعريف في سياق مناهض للاستعمار الفرنسي الجاثم على شمال إفريقيا حينذاك [٢].

و في هذا الصدد، يشير سعيد (بحيرة) إلى مرجعية كل من الزعيمين بورقيبة الفرنسية وثامر الألمانية في خصوص البناء القومي مركّزا على " التباين بين مسار البناء القومي الفرنسي الذي أضعف الدولة لفائدة المؤسسات، و المسار الألماني الداعي إلى بعث الدولة و ضرورة دعمها للقومية لجمع شتات الأمة و الحفاظ على وجودها، و إنجاز تطلعاتها في جميع الميادين" و مبرزا المفارقة الألمانية القائمة على " التحالف العريض الذي حصل بين الأرستقراطية البروسية و الجيش و البيروقراطية و البورجوازية الصناعية بإنجاز الوحدة الألمانية بدل الطبقات التي يفترض أن تكون أكثر ثورية مثل الفئات الوسطى و العمال. إذ ساهمت حروب نابليون بونابرت في إذكاء المشاعر القومية، و تسببت في قيام التحالف البروسي النمساوي الروسي الذي هزم الجيوش الفرنسية، و سمح بقيام التحالف القومي داخل بروسيا. و نتج عن الصراع مع فرنسا بروز تيار ثقافي و فكري قومي يدعو إلى وحدة

---

(١) ينظر: جوليان (شارل أندري): إفريقيا الشمالية تسير. القوميات الإسلامية و السيادة الفرنسية. ترجمة المنجي سليم، الطيب المهيري، الصادق المقدم، فتحي زهير، الحبيب الشطي. تونس/الجزائر، الدار التونسية للنشر/ الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، ١٩٧٦ (الشرق و الوحدة العربية، ص: ٢٧- ٣٥).

(٢) ينظر: مساهمتي بشروش (توفيق) و شاطر (خليفة) المنشورتين تباعا ضمن أعمال ملتقى الذاتية العربية بين الوحدة و التنوع. تونس، مركز الدراسات و الابحاث الاقتصادية و الاجتماعية، ١٩٧٩، تحت عنوان: القومية القطرية في تونس قبيل الحماية، ص. ٩٥- ١١٩ و بروز الهوية القومية في تونس ص: ١٨٧ - ٢٠٤.

الدويلات الألمانية باعتبارها تتكلم نفس اللغة ، و تشترك في الميول و السجايا و التاريخ"[١]. و يعتبر الفيلسوف الألماني فيخته(Fichte) من أبرز ممثلي هذا الاتجاه اعتمادا على الخطابات التي وجهها إلى الامة الألمانية سنة ١٨٠٧ و الذي يجعل من اللغة الألمانية ميزة جوهرية يمكن اعتمادها لتوحيد الشعب الألماني.، داعيا إلى تحديد الخطر و العمل على مواجهته غبر التربية و الأدب و المحافظة على اللغة.

و كان انخراط الطالب في الطب، الحبيب ثامر في نشاط جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا منذ سنة ١٩٣٣ متحملا مسؤوليات في مكتبها من جهة وفي جمعية الوحدة العربية منذ ١٩٣٢ من جهة ثانية الدليل على وقع الدعاية التي أنجزها الأمير شكيب أرسلان اتجاه الطلبة المغاربة و التونسيين[٢]. و اختار الطالب الحبيب ثامر أن يدلو بدلوه في الجدل الذي أثاره الاشتراكيون الفرنسيون الماسونيون بتونس حول مسألة الحجاب و تعليم المرأة في الفترة المتراوحة من ١٩٢٤ – ١٩٢٩ [٣] ناشرا مقاله حول مسألة المرأة في شهر جوان ١٩٣٠ و سابقا بأشهر قليلة صدور كتاب " إمرأتنا في الشريعة و المجتمع" (أكتوبر ١٩٣٠). و كانت

---

(١) بحيرة (سعيد):فكرة الأمة التونسية: مدلولها و تجلياتها (١٩١٩ – ١٩٣٩). بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية بتونس، السنة الجامعية ١٩٩٨ – ١٩٩٩.

(٢) ضيف الله (محمد):الحركة الطالبية التونسية (١٩٢٧–١٩٣٩). زغوان، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٩، ص ص: ١٩٣–١٩٤، ٢٢٩، ٢٣٧–٢٣٨، ٢٦٨–٢٦٩.

وأدرج المؤلف مقتطفات من مقال ثامر حول المرأة في الملاحق ص: ٣٢١ – ٣٢٢.

(٢) بن يوسف (عادل): النخبة العصرية التونسية. طلبة الجامعات الفرنسية ١٨٨٠–١٩٥٦. كلية الآداب و العلوم الإنسانية بسوسة، ٢٠٠٦،ص: ٣١٣–٣١٧.

راجع : الشايبي (محمد لطفي): الحداد و بورقيبة معركة السفور و اللقاء المؤجل (١٩٢٤ – ١٩٥٦). تونس، منشورات سوتيميديا، ٢٠١٩، ص: ٥٣ – ٦٤.

- Tunis-Socialiste, 16 janvier 1929. Lettre ouverte à une jeune musulmane étudiante à Paris (Il s'agit de Tawhida Ben Cheikh), par Eve Noëlle.
- Tunis-Socialiste, 29 février 1924. Lettres d'une musulmane, par Eve Noëlle.
- Tunis-Socialiste, 24 avril 1924. Les femmes et l'école, par Eve Noëlle.
- Tunis-Socialiste, 30 juin 1924. Lettres aux dames musulmanes, par Eve Noëlle.

مقاربته مختلفة عن ما نشره أنصار الحداد في المسألة المطروحة و خصومه. إذ كانت معالجته لتحرير المرأة التونسية أبوية، إذ يجعل لها وظيفة مخالفة لوظيفة الرجل و المتمثلة في " تربية أبناء الشعب حتى يصيروا لوطنهم صالحين يشعرون بواجبهم الاجتماعي وتلك خطة ذات شأن عظيم وهي أسّ لقوام المجتمع وحفظ كيانه. وقد تستدعي للقيام بها مهارة ودراية لا تكتسب إلا بالتعليم ولا يمكن أن نجدها عند الأم الجاهلة فيجب علينا إذا أردنا حقيقة رقي شعبنا والسير به إلى الأمام أن نعلّم بناتنا ونرفع مستواهنّ حتى يقمن بعملهن أحسن قيام"[١].

كما طرح ثامر برنامجا تعليميا خاصا بالمرأة التونسية يعدّها " لوظيفة الأمومة ":

" نثقفها ثقافة عامة ونزوّدها بقسط وافر من المعلومات الشاملة ما يجب أن تعلم من شؤون الحياء ونربّي في نفسها شخصية بارزة تشعرها بالمسؤولية التي تترقّبها وبواجبها نحو وطنها وتغذّي ذهنها بالتعاليم الوطنية حتى تنشأ على حبّ وطنها وتغرس ذلك في فكر ولدها منذ صباه فتسعد به الأمة.

" و ممّا يجب أن تعطى له عناية خاصة هو تهذيب أخلاقها وذلك بأن نعلمّها المبادئ الدينية التي تهدي إلى الصراط المستقيم وتكسب صاحبها الأخلاق الفاضلة الحميدة ونحفظها أقوال الحكماء والأدباء والأمثال السائرة التي هي كنز عظيم و ذخر ثمين من تجارب الحياة ولا ننسى تعليمها آداب المعاشرة لتكوّن أسرة فاضلة وبيتا سعيدا ويجب الاهتمام بالفنون الجميلة لأنها تهذّب ذوْقها وتعوّدها على النظام.

" و كما أنّا نربّي فكرتها، نربّي بدنها بالألعاب الرياضية المختلفة الأنواع. و لنعلّمها قبل كل شيء تاريخ بلادها والانتصارات التي كتبت على صفحاته بمداد الذهب فتفتخر بها. والفاجعات التي صدمته في كرّ الأيام ومرّ العشى فتنشأ معتزّة بقومتيها ساعية في رقي وطنها المفدّى.

" وممّا يجب إلفات الأنظار إليه هو أن لا يكون التعليم إلا بلغتنا القومية باللغة العربية فعار علينا أن نهْمل لغتنا ونعلّم البنت لغة أخرى..."[٢].

نستشف من البرنامج المعِدّ لتربية المرأة التونسية و تثقيفها أنه موكول لها واجب " غرس التعاليم الوطنية في فكر ولدها منذ صباه" بواسطة لغة قومية سليمة أي لغة عربية يلقنها معلمون أكفاء " إذ كلّنا يعلم أن اللغة هي أوثق رابطة بين أفراد الأمّة وهي ركن من الأركان التي تُبنى عليها دعائم الوطن فتُكوّن وحْدته حتى يصير الشعب كإنسان واحد يتتبع مرمى واحدا فإذا لا نهتم بلغتنا ولا نحافظ عليها انحلت تلك الرابطة وتلاشت واضمحلت وحدة الشعب

---

(١) ضيف الله (محمد):الحركة الطالبية التونسية...، مرجع سابق، ص: ٢٣٧.

(٢) ثامر (الحبيب): مسألة المرأة في النشرية السنوية لجمعية طلبة شمال إفريقيا بفرنسا، السنة الجامعية ١٩٢٩ – ١٩٣٠، تطوان، مطبعة النهضة، ١٩٣٠، ص: ١٠ – ١٦.

فيسير إلى فوضى لا مهرب منها وإن لنا أسوة حسنة بتلك الأمم التي حافظت على لغتها وسفكت دمها في هذا السبيل بأمة كبولونيا التي كانت تضطهدها الدولة الروسية وتذيقها أمرّ العذاب لتقْتل لغتها وعوائدها، ولكنّه قد أخْفق مسْعاها وذهب أدْراج الرّياح لقوة عزيمة أهل البلاد و محافظتهم على لغتهم وعوائدهم. و قد ضحّوا في سبيلها أنفسا لا يحصى عددها إلا الله وها هي الآن قد أصبحت أمّة تعتبر في العالم وتعدّ من الأمم المتمدّنة فليكن لنا عبرة ودرسا ولنحافظ على لغتنا و قوميتنا إذا أردنا أن لا يمْحى ذكْرنا من صفحات التاريخ ولنعلّم البنت باللغة العربية لغة أجدادنا الكرام حتى تنْشأ صالحة معتزّة بقوميتها وتبثّ ذلك في ذهن ولدها حتى يكون وطنيا غيورا".

أجل وجب التذكير بالحالة السياسية والاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية المتردية للإيالة التونسية في مطلع الثلاثينات : استهداف التونسي في معاشه اليومي جراء تداخل انعكاسات الأزمة الاقتصادية المحلية (قحط و جراد و فيضانات و تفقير شرائح المزارعين الصغار و الحرفيين و استدانتهم) و الدولية (الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية لسنة ١٩٢٩) وفي هويته (الشخصية التونسية العربية الإسلامية) إثر انتهاج سياسة الفرنسة و التجنيس و الرامية إلى إدماج التونسي و انصهاره في البوتقة الحضارية الغربية ، هذه العوامل المتصلة بالعمل الدعائي للأمير شكيب أرسلان اتجاه الطلبة التونسيين و المغاربة المتأثر بالمنوال الألماني إثر تحقيق وحدة الدويلات البروسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر و رفع شعار استقلال المستعمرات الفرنسية أثناء الحرب العالمية الأولى، أثرت حتما في المقاربة التي طرحها الطالب الحبيب ثامر بالنسبة لتعليم المرأة لا كما يريدها الاستعمار الفرنسي و لكن كما تتراءى للخط الوطني الناهض [١]. إذ أسس الاستعمار الفرنسي أيديولوجيته في الاحتلال على ثلاثة منطلقات مركزية في المغرب العربي: التشكيك في مكانة الإسلام، مع الحكم على نخبه السياسية بالعجز في حقل بناء الدولة و تنظيم المجتمع، و بالتالي الإقرار بانعدام وحدة وطنية (تاريخية اجتماعية و إثنية) لشعوب المنطقة و مكوناتها الاجتماعية و الثقافية[٢].

---

(١) الشابي (محمد لطفي):الحركة الوطنية التونسية و المسألة العمالية النقابية. الجزء الثاني ١٩٢٥ - ١٩٤٣.

تونس، مركز النشر الجامعي، ٢٠١٥، ص: ٢٤١ - ٢٦٩.

- Mahjoubi (Ali) : Les origines du mouvement national tunisien 1904-1934. Tunis, PUT, 1982.

(٢) مالكي (محمد): الحركات الوطنية و الاستعمار في المغرب العربي. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣، ص: ٢١٧.

و من هنا، فإن الرؤية الأبوية التي صبغت مقترح الحبيب ثامر في الوظيفة المنوطة بعهدة المرأة الناهضة و المتمثلة في التربية العائلية و الثقافة العامة وحسن الأخلاق و وظيفة الأمومة و زرع حب الوطن ، كانت ناتجة لا فقط عن شعور وطني و وعي بمقومات الشخصية الوطنية التونسية كما نظر لها محمد الجعايبي سنة ١٩٢٤ بل أيضا عن إدراك بركنها العربي الإسلامي و رغبة في الاستقلال [١].و في هذا السياق، انتقد الطالب التونسي

---

(١) "الصواب"، ١٢ جويلية ١٩٢٤. وطنيون قبل كل شيء، م.ج. نقتطف منه هذه الفقرات:

" من المعلوم أن البلاد التونسية قد تعاقبت عليها أمم كثيرة و أداروا شؤونها غصبا و قسرا بحيث أنها عاشت في أكثر أدوار حياتها مغلوبة على أمرها لكن في كل فترة وهت فيها قوة المتغلب و تلاشت وحدته حكمت نفسها بنفسها و جمعت قواها لتأييد قوميتها و حفظ كيانها من عبث العابثين.

" و أراني في غنى عن سرد التقلبات و الحوادث بتبسط في هذا الباب بل نكتفي بسلطة الرومان عليها فإن هذه السلطة بالرغم من كونها عاشت طويلا و باضت و وفرخت بشمال إفريقيا (لم تذكر عبارة استعمار) لم تستطع الدوام و لم يكن بوسعها قط ابتلاع الذاتية التونسية أو إبادة الجنسية الوطنية (نفس السياسة : الرومنة / الفرنسة / الاندماج).

" وبالرغم من كون الأمة العربية و العنصر التركي تجمعهم مع سكان هذه البلاد رابطة الدين و المعتقد فإنهما لم يتمكنا من ابتلاع الذاتية التونسية و لم يقضيا على جنسيتها الأصلية و ذلك أقوى دليل على ضعف البيئة الأدبية و إن طال زمان الاختلاط.

"و من جهة أخرى فإن تأثير البيئة المكانية أيضا من أسباب الإخفاق إذ نقل جنس من الأجناس إنسانا أو حيوانا أو نباتا من مسقطه إلى بلد مختلفة عن بلده فنى و لم يتحول كما أشار إلى ذلك الدكتور – قوستاف لوبون – و قال أن عشرة أمم فتحت مصر فكانت مصر مقبرة الجميع.

" و هذا هو السر في ضياع جنسيات الفاتحين لتونس و تلاشيها و بقاء الجنسية التونسية برُمّتها فمحاولة الاندماج و تكوين ' دومنيون' كما يحلم به قلاتي و الضّاربون على نغمة الحكومة فهو خوْر و هذيان.

ثم أن إدماج أمّة راقية جدّا مع أمّة ليست كذلك لا يكون ألا أمّة منحطّة انحطاطا واضحا. و قد علل ذلك الدكتور'غوستاف لوبون' اختلاف المتوالدين يحلّل خلق الفريقين و يفكّك آدابهم.

" و بما تقدّم يَظهر أنّ محاولة الاندماج زيادة عن كونها لا تلاقي ارتياحا من التونسيين الغنيين بجنسيتهم و المحافظين على تراث أجدادهم فهي لا ترقي الشعب و لا تتيح له حضارة و مدنية ناقمين و مقيدين . " "فمحاولة الفرنسيين و المتشيعين لفرنسة التونسيين فهو من باب الرقم على الماء و محاولة اقتناص الجوزاء. و لذا فالأليق و الأجْدر بساسة الفرنسيين أن

القومي العربي الحبيب ثامر في تقريره سنة ١٩٣٢ حول حالة التعليم و التربية بالمدارس الابتدائية بتونس عدم اعتناء مدرسة ترشيح المعلمين " بإحضار المعلمين الأكفاء و تركها العربية لمن ليست لهم خبرة فنية بالتعليم. و لو أنه هنالك فرع للعربية لكنه غير مستقل و تعليمه غير ملائم لحاجيات البلاد و عدد متخرجيه غير كاف إذ تلاميذه لا تتجاوز ٢٧ تلميذا و الإدارة ترفض طلب كل من زاد على هذا العدد ثم عدّد اقتراحات استخلصها من بحثه في جعل العربية مادة رسمية للامتحانات. و إعطائها حظها في التعليم بتسويتها مع الفرنسية و توحيد البرامج و اختيار الكتب الصالحة، و إعطاء معلّميها الحقوق التي لزملائهم معلّمي الفرنسية و إعداد معلّمي العربية إعدادا كافيا من جهة العدد و الكفاءة" (١).

و هنا تبرز الروح القومية الوطنية لدى الحبيب ثامر و تمتزج لديه مع عداء للتقليد الأعمى للغرب، فينتقد الفتاة المتعلمة في المدارس الفرنسية و التي قلدت الغربية "تقليدا أعمى في جميع الأشياء، و لم تكن لتتخذ الحسن من المدنية الغربية و لكنها أقبلت على ما كان يبهر عقلها و مخيلتها من الظواهر و القشور وارتمت على ما يسهل تقليده و هو المساوئ و الرذائل و كل ما هو مستهجن "(٢).

و الجدير بالملاحظة ، أن ما رافق مقال الطالب الحبيب ثامر في مسألة المرأة سنة ١٩٣٠ و ما تضمنه تقريره حول حالة التعليم و التربية سنة ١٩٣٢ من حضور إيديولوجي وطني قومي عربي سيزداد التزاما بالتوجه القومي العربي حين إنهاء دراسته في الطب سنة ١٩٣٨ و رجوعه إلى تونس و الذي تزامن مع فترة القمع الاستعماري الذي تلى أحداث ٩ أبريل ١٩٣٨ و انخراط الحزب الحر الدستوري الجديد في المقاومة و العمل السري. و تفيدنا

يصْرفوا وجوههم عن هذا المسْعى، أن يعْطوا تونس حقوقا سياسية تحْفظ بيضتها و توجد و التوازن بينهم و بين الفرنسيين لأنه ليْس في وسْع أي مخْلوق أن ينْدمج لصعوبة الحال و كوْنهم ليْسوا بانْدماجيين وإنمّا هم وطنيون قبْل كل شيء و سيبْقون كذلك إلى الأبد و كفى بالتاريخ عبْرة و تبْصرة لقوْم يعْقلون.

" **التونسيون وطنيون قبل كل شيء يودّون أن يكونوا سعداء في بلادهم أحرارا من كل قيد ليسوا بمذمومين و لا مدحورين و لا محرومين من إدارة شؤون بلادهم تحت رقابة مستقيمة و مخلصة**".

(١) ثامر (الحبيب): حالة التعليم و التربية بالمدارس الابتدائية بتونس (ملخص تقرير) في نشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، الجزائر ١٩٣٢. تونس، مطبعة الاتحاد، ١٩٣٢، ص: ١٢٢- ١٢٦.

(٢) ضيف الله (محمد):الحركة الطالبية...، مرجع سابق، ص:٢٣٨.

مذكرات الباهي الأدغم الحديثة الصدور (٢٠١٩) أن الطبيب المناضل، الحبيب ثامر كان منخرطا في الحزب القومي العربي و مطلعا بمهام الرئيس المسؤول عن القطر التونسي [١].و كان المنخرط في صلب هذه الحركة ملزما بأداء اليمين التالي: " أقسم أن الوطن العربي بكليته وطني، و أن الأمة العربية بكليتها أمتي، و أن حزبي هذا (يعني الحزب القومي) يمثل إرادتها، و تصح مصالح الأشخاص و الجماعات إن وافقتها، و تفسد إن خالفتها. و أقسم بالله و يشرفني أن أنفذ هذا المبدأ القومي العربي و أوقف نفسي و مالي على إنجاح حركته"[٢].

(١) الباهي الأدغم الزعامة الهادئة. ذكريات و شهادات و خواطر. تونس، دار " نيرفانا"، ٢٠١٩، ص: ٥١٣-٥١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٥١٣-٥١٤.

الخاتمة

تكتمل مرجعية الحبيب ثامر الإيديولوجية القومية العربية أثناء فترة الاحتلال الألماني الإيطالي للإيالة (٧ نوفمبر ١٩٤٢- ١٣ ماي ١٩٤٣) عبر إشرافه على صحيفة " إفريقيا الفتاة " (جانفي - ماي ١٩٤٣) و نشره المقالات التالية : الوطن و الوطنية، الزعيم و الحركة الوطنية، الإيمان بالشخصية الوطنية[1]. و يتضح أن خلافه مع الزعيم بورقيبة كان

---

(١)" إفريقيا الفتاة"، ٢١ جانفي ١٩٤٣. الوطن و الوطنية:

"هكذا جاءتنا الشريعة طافحة بالأدلة الباعثة على غرس محبة الوطن في النفوس و إذكاء شعلتها في القلوب وبذر بذورها و إنماء نباتها.

" فلم يبق لدينا إلا أن نبين معنى الوطنية الحقة و هي الدين و اللغة و الجنس فمن حافظ على هذه الأمور الثلاثة فقد حافظ على وطنية و من أضاعها فقد أضاع وطنيته فلذا هل نسمعه يقول ألا وطني و لا دين لي نحكم عليه بأنه لا وطنية له.

" و ليست الوطنية مقصورة في الخدمة على طائفة مخصوصة دون أخرى بل كل شخص في دائرة عمله يستطيع أن يكون وطنيا و طالما كنت أودّ أن أحدث بهذا لما خامرتني هذه الفكرة حتى صرت مؤمنا بها و من ألطف ما حدثني به ابن و صديق عن العلامة المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس محيي الجزائر أنه كان يقول لو عمل كل شخص و لو في دائرة محدودة لفائدة الوطنية بالمعنى المقدم لحصلت فوائد لم تدر بخلد و لم تجر على خاطر كما لو كان أشخاص ينزلون محلة قذرة و اعتنى كل واحد بإزالة ما أحاط لأصبحت في برهة من الزمن نقية من الأدران..

"و لنبيّن هذه النواحي التي يمكن أن يقوم فيها كل شخص بمجهود خاص حتى يكون خادما لبلاده .

"فالعالم في استطاعته أن يكون وطنيا وهو لم يخرج عن دائرة علمه فأنه أن تفانى في بحثه العلمي و ضحّى و أنتج مما يجعل رأس أمته عاليا خدم بذلك وطنه فإن النهضة الفكرية حياة للأمة و بعث لها من مرقدها و لا تستطيع أمة أن تحكم نفسها بنفسها إلا كان فيها رجال في مقدورهم أن يخدموا الفكر البشري حتى يكون ذلك الفكر في مقدوره أن يقدم لأمته ما تحتاجه في نضالها الذي تقوم به للإحراز على مستواها اللائق بها أو تحصل على منفذ للنور إن كانت من الأمم أمثالنا التي كانت أن تحرم التنفس.

"و كان من له مَسّاس بالتعليم مُعلّما كان أو مُتعلّما في استطاعته أن يُسدي لوطنه خدمات جليلة فالتلميذ باجتهاده و اعتنائه يؤدّي واجبه و الأستاذ بالإخلاص في مهنته و قيامه قياما

صادقا على تلاميذه بإصلاح وإرشادهم إلى الطريق السّوي و على هذين المُعلّم و المُتَعلّم مدار صلاح المستقبل و فساده فهما الفلك الدائر.

"و التاجر هو من أكثر الناس مساسا لخدمة الوطن بعمله و مهنته فإنه إذا استقى ما أنتجته بلاده ورغب فيه و سعى في انتشاره أحيا نهضة اقتصادية في بلاده و الاقتصاد أقل شيء تتجه إليه أنظار من يخدم و يسعى في رفع مناره.

"و التاجر المخلص خادم لبلاده بإخلاصه لأنه يسعى في حفظ مالها الذي به قوامها و لو راقب الله تجار الأمم الضعيفة و راعوا لبلادهم ذمة لخففوا عنها بعض الويل و أسدوا لها من صنائع المعروف و أيادي الإحسان ما يحفظها من الهلاك المبيد و التردي السحيق.

"وأنا نرجو آملين أن يعلم تجارنا واجبهم كي يساهموا مساهمة فعالة في خدمة الوطن فإن الحاجة إلى عملهم في دائرة تجارتهم كالحاجة إلى العمل السياسي و لعل ما هم فيهٌ أقرب رحمة بالقضية و أشد مساسا بالاتجاه المقصود و السبيل المسلوك.

"و ليست الوطنية مقصودة في هذه الحرف بل هي تجري في كل واد و تدخل في كل قضية فمن راقبها في الجليل و الحقير وجدها لا تشذ عن شيء فليستقم كل منا في أمره و يبذل وسعه.

"أيها الأفارقة قد حان لكم وقت العمل في كل ميدان و في كل منحى و تمهدت السبل و زالت العقبات فانظروا إلى مستقبلكم و اسعوا للحياة و اكدحوا إلى غايتكم كدحا و لا ترقبوا ساعة غير هذه و لا ميدانا غير هذا فطالما ذقتم الأمّرّيْن فضاقت بكم السبل و تقطعت بكم الأسباب فها قد أفسح الله لكم ميدان العمل ليرى ما أنتم فاعلون."

" إفريقيا الفتاة"، ٢ فيفري ١٩٤٣. الزعيم و الحركة الوطنية:•

"الحياة مراحل. و ما من إنسان إلا و له في تاريخ حياته أطوار، فما ينفك ينتقل، و ما ينفك يصبو إلى مرحلة جديدة، حتى يبلغ الغاية و يحط الرحل عند المأمول.

"تلك هي سنة الله في ابن آدم باعتباره فردا؛ فكيف يكون و هو جماعة؛ بل كيف يكون و هو أمة؟ لا شك و إن الحرص و الأمل ههنا ينقلبان إلى استماتة و تفان في الحياة بمعناها السامي، لأنا أن فسرنا الحرص و الأمل باعتبار الفرد بالنفعة الذاتية، فلا يمكن لنا أن نفسرهما باعتبار الجماعة إلا للمصلحة العامة.

"إذن فدأب الكائنات أن تنتقل من مرحلة إلى أخرى و تظهر إلى درجة أسمى من التي هي فيها و ذلك علامة حيوتها. و هي أظهر في الإنسان منها في غير، و في الأمة أكثر منها من الفرد. لكن هل في مقدور أي أمة أن تقطع مراحلها التي فرضتها عليها طبيعة الحياة بدون التفاف حول حزب و زعيم ؟

"هذا ما نريد التحدث عنه، فأما الحزب فهو المنظمة التي تتمثل فيها رغائب الأمة بأجمعها. وهو اللسان الناطق بآمالها و المعبر عن آلامها، وهو قلبها الخفاق الذي يستدل بنبضه عن حياتها؛ وبسكونه عن موتها. فالأمة هي حزبها. و يكفي شاهدا على ما نقول تاريخ الأمم السالفة و المعاصرة. فكل نهضة قديمة أو حديثة في أمّة غَبَرَتْ أو لازالت في ريْعان شبابها أنما مصدرها حركة قومية قد اضطلع بتحمّل أعبائها حزب وطني جمع تحت لوائه أشتات تلك الأمة و سار إلى الغاية السامية التي تصْبو إليها. و هذه فرنسا خَرَجَت من حربها الأخيرة مهيضة الجناح لم تنته من عقد الهدنة حتى سارعت بتشكيل حزب تريد ضمّ أشتات الشعب تحت لوائه، و كذلك صنعت ألمانيا بعد ١٩١٨ حيث انضمّت تحْت حركتها الوطنية الاشتراكية التي أخرجت اليوم للعالم ما أبْهَتَه!

"" و أما الزعيم فهو إكسير الحركة و قطب رَحاها تَنْبعث بانْبعاثه، و تمْشي خلْفه أينما مَشى و يسْتقيم سيْرها كلّما كان معها فإذا ما غاب عنها طوْعا أو باستئثار الحوادث الهوْجاء اشتدّت حيْرتها حتى يعود إليها. فكما أن الأمة تتمثّل في حزبها فإن الحزْب يتمثّل في زعيمه.

"والآن ، ماذا ينقصنا نحن من كل هاته الأسس التي يبني عليها المستقبل؟ أهو الحزب؟ أم التفاف كل الطبقات حوله؟ أم هو الزعيم ؟

"لا شك و أن الذي ينقصنا هو رجوع الزعيم. ذلك أن الحزب قائم على رأس الأمّة تعمل حسب المبادئ المقرّرة من قبل و على الخطة التي تمليها الظروف. و التفاف الشعب حوله على اختلاف طبقاته و نزعاته أمر واقعي لا نزاع فيه.

"أما الزعيم فهو بيننا يواصل الكفاح نأتمر بأمره و نسير على أثره وهو رئيس الحزب اليوم الحكيم الحبيب ثامر.

"على أنا إذا طلبنا رجوع المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة و ألححنا في الطلب فما ذلك ألا لكونه رمز الحركة الوطنية الحي و الرجل الذي اختبر القضية التونسية و عالج معضلاتها و الشعب لا يرضى أن يقرر مصيره و لا أن يقف موقفه الحاسم في هذه الظروف الدقيقة دون أن يكون زعيمه مشرفا عليه."

• **" إفريقيا الفتاة"، ٣ فيفري ١٩٤٣. الإيمان بالشخصية التونسية:**

"منا من يحتقر أمّته إذا قارن بينها و بين الأمم العظمى فيظنّ أن الأمّة بقوّتها و أموالها و مساحة أرضها و عدد أفرادها فحسب. و كلّما التفت إلى الأمّة التونسية وجدها ضعيفة فقيرة ضيقة البلاد قليلة العدد فيتنهد من أعماق صدره و يقول في نفسه أو يقول لمن ينصت إليه:' أننا ضعفاء فقراء فما عسانا أن نستطيع فهل لنا أموال نقتني بها ما تحتاج إليه بلادنا؟ أم هل لنا سلاح نقاوم به أعداءنا ؟' و يحلي قوله بمثل من أمثال اللغة الدارجة : ' قادم على الجبل

بقادومة' ثم يرجع إلى ما كان عليه من لعب الشطرنج إن كان لعابا أو معاقرة الخمر إن كان سكيرا.

" لا ننكر أن قوة الأمة و غزارة أموالها و اتساع أرضها و كثرة أفرادها من مظاهر عظمتها المادية غير أنها تمتاز بشخصية تقوى أو تضعف بارتفاع الأمة أو بانحطاطها فالأمة مثل الفرد لها شخصية تميزها عن سائر الأمم و أهم عناصر هذه الشخصية هي الدين و اللغة و الماضي و الآمال و الأخلاق و العوائد بما فيها من محاسن و عيوب و الأمة التونسية كسائر الأمم لها دينها و هو الإسلام و لها لغتها و هو اللسان العربي و لها ماضيها و آمالها و أخلاقها و عوائدها.

" فواجب أمتنا بعد أن تؤمن بهذه الشخصية أن تحتفظ بها و تعبر عنها تعبيرا واضحا محسوسا يجعل سائر الأمم تحترمها و تعترف بأنها تستحق الحياة و الحرية.

" فكيف يكون الاحتفاظ بهذه الشخصية أولا ؟

" لنتمسّك بأصول الإسلام و لنترُك بلا تردّد و لا تخوّف كلّ ما تراكم عليها من البدّع طول عصور الدول الإسلامية .و لنتعلّم اللغة العربية تعليما جيّدا فاللغة من أمتن الرّوابط بين عناصر الأمّة كلّها و هي التي تمكنّنا من الاطلاع على ماضينا.و لنطّلع على تاريخنا حتى نتعلّم أطوار تقدّم أمّتنا فيما مضى من العصور و أطوار تقهقرها ففي كل ذلك عبرة لمن يريد أن ينتفع بتجارب السلف.و لنحتفظ بآمالنا القومية فهي التي تربطنا بالحياة نعيش بها و نعمل لتحقيقها و نضحي بكل عزيز لدينا في سبيله.

و لنبق على أخلاقنا و عوائدنا و لنتجنّب التقليد الأعمى و ليس معنى ذلك أن نمكث جامدين معرضين عما يحدث حوْلنا من تطوّر الأمم الأجنبية و رُقيها بل يجب علينا أن نلغي من أخلاقنا و عوائدنا ما نراه أصبح غير لائق بهذا العصر و أن نقتبس من أخلاق غيرنا و عوائده و مخترعاته ما يستحسن فنكسبه صبغة قومية حتى يصير مظهرا من مظاهر شخصيتنا فلا تظن أن الاحتفاظ بالشخصية القومية يكون بالبقاء على كل قديم و اجتناب كل جديد بل الشخصية الحقة تأبى الجمود فهي حية تتطور و تنمو بفضل ما تجتنيه في طريقها.

" و شخصية الفرد أن كانت قوية تأبى إلا أن تبرز في مظاهر محسوسة واضحة فتبعث على التعبير عنها و هذا التعبير قد يكون فنيا يستخدم الألفاظ و الأنغام أو الأشكال أو الألوان و قد يكون أيضا عمليا فتبرز الشخصية فيما يقوم صاحبها من الأعمال العلمية أو الاقتصادية أو السياسية أو الحربية. و كذلك شخصية الأمة إن كانت قوية فإنها تميل كل الميل إلى البروز و تبعث أصحابها على إظهارها فيعبرون عنها تارة بأقوالهم و طورا بأفعالهم. أما نحن فطالما وصفنا شخصيتنا في المقالات و الخطب و تغنّينا بقديم مجدنا و حسن أخلاقنا و لذيذ آمالنا و

إيديولوجيا: حيث ساند المحور ضد الحلفاء عكس ما طلبه الزعيم في رسالته الشهيرة المؤرخة في موفى أوت ١٩٤٢ من الابتعاد عن أي مساندة أو تحالف مع ألمانيا كذلك ارتأى خلال الحرب و بعدها بأفضلية المقاومة المسلحة عن العمل السياسي في إطار مغاربي ضد الاستعمار الفرنسي انطلاقا من القاهرة و تحت إشراف بطل الريف الأمير عبد الكريم الخطابي و لم يكن مساندا للزعيم بورقيبة في خياره الغربي الأمريكي أثناء الحرب الباردة بل كان من دعاة عدم الانحياز الإفريقي الآسيوي.

لقلما عملنا عملا منظما متواصلا يرمي إلى تحقيق غاياتنا إذ تصدنا العراقيل تارة و يعوزنا الثبات أخرى .أما اليوم فقد زالت العراقيل أوهي زائلة و ما بقي علينا إلا أن نتزود بالثبات و أن نبرز شخصيتنا بأعمال منظمة مستمرة مثمرة تخرج بآمالنا من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة."

ثبت المصادر

أولاً: الوثائق (الصحف)

- إفريقيا الفتاة، ٢١ جانفي ١٩٤٣. دراسات: الوطن و الوطنية.
- إفريقيا الفتاة، ٣ فيفري ١٩٤٣. الإيمان بالشخصية التونسية.
- الصواب،١٢ جويلية ١٩٢٤. وطنيون قبل كل شيء، محمد الجعايبي.

ثانياً: الكتب

- الباهي الأدغم الزعامة الهادئة. ذكريات و شهادات و خواطر. تونس، دار " نيرفانا"، ٢٠١٩.
- ثامر (الحبيب): حالة التعليم و التربية بالمدارس الابتدائية بتونس (ملخص تقرير) في نشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، الجزائر ١٩٣٢. تونس، مطبعة الاتحاد، ١٩٣٢.
- ثامر (الحبيب): مسألة المرأة في النشرية السنوية لجمعية طلبة شمال إفريقيا بفرنسا، السنة الجامعية ١٩٢٩ – ١٩٣٠، تطوان، مطبعة النهضة، ١٩٣٠.
- نشرة الجمعية لعامي ١٩٣١ – ١٩٣٢. جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا. تونس، مطبعة الاتحاد، ١٩٣٢.

ثالثاً: المراجع:

- بشروش (توفيق): القومية القطرية في تونس قبيل الحماية.
- الذاتية العربية بين الوحدة و التنوع.مركز الدراسات و الأبحاث الاقتصادية و الاجتماعية، ١٩٧٩.
- شاطر(خليفة): بروز الهوية القومية في تونس.
- الشايبي (محمد): النخبة الطالبية التونسية و قضية تحرير المرأة في الثلاثينات في المجلة الصادقية، عدد٣١، ٢٠٠٣.
- ضيف الله (محمد): الحركة الطالبية التونسية (١٩٢٧ – ١٩٣٩).تونس، مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات، ١٩٩٩.

- مالكي (امحمد): الحركات الوطنية و الاستعمار في المغرب العربي. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣.
- مولاهي (مراد):الدعاية الألمانية و أثرها في الرأي العام التونسي خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥). دكتوراه في التاريخ و الآثار و التراث، كلية الآداب و الفنون والإنسانيات بمنوبة.

المصادر الفرنسية

- Bouhdiba (A.) : Discours introductif, pp:13-18.
- Guezmir (K.) : Fait national et conscience nationale. Approche théorique, pp :97- 106.
- Identité culturelle et conscience nationale en Tunisie. Cahier du CERES, juin 1975, série Sociologie, n°2 :
- Ory (Pascal) : Qu'est-ce qu'une nation ? Une histoire mondiale. Paris, Gallimard, 2020.